

قيمة الإيثار

الإيثار خلق من الأخلاق الكريمة التي تدل على المروءة ، والشهامة ، والنبل ، والإنسانية ، والرقي ، فديننا الحنيف يحثنا على الإيثار وسخاء النفس ، وينهانا عن كل ألوان الأثرة والأنانية ، وقد أثنى القرآن الكريم على الأنصار ووصفهم بهذا الخلق النبيل ، فقال سبحانه : "وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " (الحشر : ٩) ، وأتى رجلُ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ ، فَقُلْنَ : مَا عِنْدَنَا إِلَّا الْمَاءُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : " مَنْ يَضُمُّ هَذَا ، أَوْ يُضِيفُ هَذَا ؟ " فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ : أَنَا ، وَأَنْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ ، فَقَالَ : أَكْرَمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقَالَتْ : مَا عِنْدَنَا إِلَّا قَوْتُ الصَّبِيَّانِ ! فَقَالَ : هَيْبِي طَعَامَكَ ، وَأَصْبِحِي سِرَاجَكَ ، وَنَوْمِي صَبِيَّانَكَ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً ، فَهَيَّآتِ طَعَامَهَا ، وَأَصْبَحْتِ سِرَاجَهَا ، وَنَوَّمْتِ صَبِيَّانَهَا ، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ السَّرَاجَ ، فَأَطْفَأَتْهُ ، فَجَعَلَا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ ، فَبَاتَا طَاوِيئِينَ ، فَلَمَّا أَصْبَحَا غَدَا إِلَى رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقَالَ : ضَحِكَ اللهُ اللَّيْلَةَ ، أَوْ عَجِبَ مِنْ فِعَالِكُمَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : " وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ " (صحيح البخاري).

وفي الصحيحين عن عائشة (رضي الله عنها) قالت : " جَاءَنِي مِسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ هَا ، فَأَطْعَمْتَهَا ثَلَاثَ تَمْرَاتٍ ، فَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً وَرَفَعَتْ إِلَيَّ فِيهَا تَمْرَةً لِتَأْكُلَهَا ، فَاسْتَطَعَمْتَهَا ابْنَتَاهَا ، فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا ، فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا ، فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعْتُ لِرَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ : " إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ ، أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ " (صحيح مسلم) .

وعن حذيفة العدوي أنه قال : " انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمي ، ومعي شنة من ماء ، وإناء ، فقلت : إن كان به رمق سقيته من الماء ، ومسحت به وجهه ، فإذا أنا به ينشغ - أي : يمص بفيه - ، فقلت له : أسقيك ؟ فأشار أن نعم ، فإذا رجل ، يقول : آه ، فأشار ابن عمي أن انطلق به إليه ، فإذا هو هشام بن العاص أخو عمرو بن العاص ، فأتيته ، فقلت : أسقيك ؟ فسمع آخر ، يقول : آه ، فأشار هشام أن انطلق به إليه ، فحجته فإذا هو قد مات ، ثم رجعت إلى هشام ، فإذا هو قد مات ، ثم أتيت ابن عمي ، فإذا هو قد مات " (شعب الإيمان للبيهقي) .

وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) : " أن عبد الرحمن بن عوف قدم المدينة ، فأخى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري ، فقال له سعد : أي أخي ، أنا أكثر أهل المدينة مالا ، فأنظر شطر مالي ، فخذهُ ، وتحتي امرأتان ، فأنظر أيهما أعجب إليك حتى أطلقها ، فقال عبد الرحمن : بارك الله لك في أهلك ومالك ، دُلوني على السوق ، فدلوهُ على السوق ، فذهب فاشترى وباع وربح " (مسند أحمد) ، وبارك الله له حتى صار من أكثر الناس مالا وبركة .

ولما حضرت الوفاة سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال لابنه عبد الله : " يا عبد الله بن عمر اذهب إلى أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) فقل : يقرأ عمر بن الخطاب عليك السلام ، ثم سلها أن أدفن مع صاحبِي ، قالت : كُنْتُ أُرِيدُهُ لِنَفْسِي وَلَا وَثِرَنَّ بِهِ الْيَوْمَ عَلَي نَفْسِي " .

وأعلى درجات الإيثار هو إيثار ما عند الله تعالى على الدنيا وما فيها ، استجابة لقوله تعالى : مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ " (النحل : ٩٦) ، ومنه ما كان من أبي طلحة الأنصاري (رضي الله عنه) حيث كان الرجل أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل ، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، فلما أنزلت هذه الآية : " لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ " (آل عمران : ٩٢) قام أبو طلحة ، فقال : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ : " لَنْ

تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ^٤ " (آل عمران : ٩٢) ، وَإِنَّ أَحَبَّ مَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءٌ ، وَإِنَّهَا
صَدَقَةٌ لِّلَّهِ أَزْجُو بَرِّهَا وَذُخْرُهَا عِنْدَ اللَّهِ ، فَضَعْنَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ ، فَقَالَ رَسُولُ
اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : " بَخِ ذَلِكَ مَالٌ رَّابِحٌ ، ذَلِكَ مَالٌ رَّابِحٌ ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ ،
وَإِنِّي أَرَى أَنْ تُجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ : أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ : فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي
أَقْرَبِيهِ ، وَبَنِي عَمِّهِ " (صحيح البخاري) .

فما أحوجنا إلى العودة إلى ديننا وقيمنا والتحلي بهذه الأخلاق الكريمة .

* * *

